قصة

ابنة القاتل

للكاتب الفرنسي « م . جيراردية »

ترجمة الآنسة نست حسن

البحر ثائر . دفع الى الصخور بجيش من الامواج ، رهيب لا يترامى اليه الطيار وقفت هي في مكانها لا تتحرك ، قلقة تتوقع قيام العاصفة . وفتحت المنارة عينها ، يومض نورها وسط الظلام .

إن التي وقفت في مكانها لا تتحرك .. تلك هي امرأة أتت لاشعال المنارة . وقفت هناك في أعلى ، وقد عصب شعرها بمنديل ثبتته حول رأسها . وضمت الحرملة على صدرها وكان الهواء شديداً يحاول انتزاعها . ثم انعطفت تأخذ مصباحاً ، كان على الأرض بالقرب منها . وبينما هي تتأهب للنزول ، سمعت وقع خطوات .

وخرج من الظلام ، رجل بدت على مظهره المتوحش ، علامات السكر الشديد ، وكان يتمتم بكلمات مبهمة — ثم قال وعلى فمه ابتسامة طاهرة حائرة :

— حل أتممت العمل ؟ ... هذا حسن ...

ثم انفجر يضحك ضحكات جنونية ، دوت في ذلك المبنى الضيق ، وطغى صوتها على صوت الامواج فقالت المرأة في حزن .

لو أني لا ألاحظ المنارة بنفسي ، لهلك الكثيرون من الملاحين .. بينما أنت في الحانة تحتسي الخمر . فقال الرجل متلعثماً .

— لو كان هذا ... تقصدين . فاني أنهاك عن ملاحظة المنارة ..

أسعلك . فهزت رأسها قائلة :

— ما الذي حملك على القول ؟ .. أنت إنسان عديم النفع .. ولولا قيامي بعملك لكان نصيبه الفشل ، في حكم المرسوم . فنظر إليها الرجل بغضب .. وعاد هي ول .

— أجل ، أنت إنسان عديم النفع .. صغيرتي ...

وما كادت تتم كلمتها ، حتى هجم عليها الرجل ، وقد اتخذ من قبضته الغليظ سلاحاً ، وجعل يضربها كالمجنون دون تبصر . على رأسها ، وعلى صدرها ، وعلى خاصرتها

كان في استطاعتها ان تهرب من ذلك الرجل الذي أضاع صوابه الحر . ولكنه واقف أمام الباب المفتوح .. ولو دفعته ويداه لا زالت منه ، لتدهور في الفضاء ، ولقي حتفه على تلك الدرجات الحجرية .. لا ، إنها لن تفعل شيئاً ، فهو زوجها ... وجعلت تدافع عن نفسها فقط .. فتحمي رأسها بذراعيها . وزاد من الغيظ والحنق .. فضربها على ذراعها ضربة جعلته يسقط هامداً .. ثم لطمها على رأسها لطمة قوية .. سقطت على أثرها لا تتحرك ...

وبغتة ، ظهرت الابنة .. وهي فتاة في الثالثة عشرة من عمرها ! ... اتسعت عينا الطفلة ، ووقفت في مكانها جامدة ، وقد استولى عليها الرعب . أما هو فقد تزايد غضبه .. ورفع جثة المرأة ، ورمى بها على الدرج .. وإذا بها تتدحرج على الدرج الحجري ، وتتدهور معها الطفلة ! وكيف ذلك ؟ ... لقد رمت بنفسها فوق جثة أمها ! ...

وردد الرجل ، نفس الضحكة الجنونية ، أقوى من سكره .. وأخذ رأسه بين يديه ، وجعل ينظر في الفضاء بغضب ..

* * *

وانتشر الخبر ، ان زوجة « ليجوف » قد تدهورت من أعلى المنارة ، وماتت قتيلة وغدراً . أما « آن — ماري » الفتاة ، وهي الشاهد الوحيد .. فإنها لم تنتج شفتيها بكلمة عن الحقيقة . وليس من أحد يجرؤ على سؤالها .. أو يتطرق الشك الى ذهنه ، إن المأساة فيها جريمة .

وشيعت المرأة المسكينة ، الى مثواها الاخير .. وبعد قليل من الزمن ، لم يعد أحد يتكلم عنها ، فقد طغى على ذكراها النسيان . ولكن هناك من كان يذكرها : آن — ماري ، التي أشجى فؤادها الحزن ، وأصبحت شاحبة الوجه ، هادئة وريبة ، لا تفارقها ذكرى أمها — الشهيدة — والتي كانت تنظر الى أبيها — القاتل — بعينين تستعلان غضباً وتهديداً .

لم تخش الفتاة أباها . ولكنها أقسمت لنفسها حسبما يراءى لها ... وفكرت : سوف لا توجه إليه خطاباً .. لا لن تتوجه اليه .. وكان فيها عناد الأصل البريتوني .. فلم تحنث في قسمها .

كان الرجل يشتد به الغضب ، كلما بعد كلامه لا يلقى جواباً .. ولكن نظرة من الفتاة ، كان فيها من القوة ما يغني كلاماً يريد أن يفوه به ، ويجعله يتلاشى قبل أن يتحرك به لسانه . تلك هي نظرة تعيد الى الذاكرة مشهداً مروعاً !

وسط هذا العالم المخضم ، بدأ هذان المخلوقان حياة حزينة ، حيث لا يتبادلان حديثاً ، وحيث لا تنظر الفتاة الى أبيها ، حقاً إنها لحياة كئيبة ، حتى ليخشى منها على الصواب ، وكثيراً ماكان الرجل يخرج الى الطريق ، ويقف بالقرب من الأكواخ ، ليتسمع الى الأصوات الآدمية ! فإذا أقبل المساء ، توجه الى الحانة ، ليحتسي الخمر مع رفاقه ، ويفكر فجأة في المنارة . فيسير متعجلاً نحو الصخور بخطى متعثرة . ولكن آل — ماري ، تكون قد أشعلت المصباح . فيشكرها الأب . ولكنها تقابل شكره دوماً بالصمت ، ذلك الصمت الذي فيه ما فيه من البغضاء والنفور .

* * *

وبلغت الفتاة في الثامنة عشرة من سني حياتها . وازدهر جمالها ، واتسع حسنها ، وتحدثت الجميع عن أدبها وكمالها . فتقدم إليها الكثيرون من شبان الحي . كل يقدم لها حياة أرغد عيشاً من تلك التي تحياها ، ولكنها رفضت الزواج ! فالمنارة تنتظرها أن تقوم على رأسها . المنارة التي تقوم بدور الحارس ، على حياة الكثيرين في الظلام ، فقد كانت تعلم أنها لو تركت امر المنارة لأبيها ، فسوف يبحث الملاحون عنها ، عن نجيهم الهادي ، وسوف يحدث ما لا تحمد عقباه . وتعلم أيضاً ، أن أباها سوف يطرد ، ويحرم من هذه المتواضعة . ولا يكون أمامه إلا الموت جوعاً وحيداً ! إنها لا تشعر حيالة إلا بالغضب والتحدي ، لكنها لا ترضى له ذلك !!

وذات مساء ، وكانت الفتاة في أ ، حيث المنارة . وكانت العاصفة قد أشد فأصابها لفحة هواء . وهبطت الدرجات الحجرية ، وقد سرت القشعريرة في بد لازمها الـ ل ليلتها .

ر الأسابيع والأرض عندها لا يتلطف . بل يزداد حدة ، ص على خاطرها أم ا رد فثارت ثائرة نفسها . ذن ، سوف لا تتذوق أي فر فراح الطبي ن ، ثبين لها فجأة أن تد جـ نها هي بعيدة عن الصوا أحد تشو كانت تنتظر الشفاء في نفس وقـ إنها تريد نسيانها في الفر في الم ل .

ستدت بها وطأة المرض وأ فتاة لا تمشي إلا بصعوبة . ولكن ، عند ذل المساء ، قبل أن يعود الأ كانت تجر نفسها جراً ، الى ي المنارة ، ثم رقد وهدت قواها واصطحبت فتاة تنظر في الفضاء الفارغ ، وقد

لمعت عيناها في محياها الباهت . وأصبح الأب قلقاً يفكر طويلاً الى ذلك الباب المغلق ، الذي أصر على الصمت في عناد .

* * *

كان يتردد على الفتاة بالزيارة ، بعض الجيران ، ممن عرفوا أباها فيما مضى . فكانت ترحب بهم .. وتكثر من سؤالهم عن كل ما يذكرون عن أمها . وحدها ، يتسمع القاتل الى صوت ابنته ، كما لو كان يتسمع الى موسيقى السهية .. كان يود لو أنها تنسى يوماً ، وتباطله الكلام ! كان معذباً تعذيباً قاسياً . فقد كانت زوجته تتراءى له في كل ليلة .. تلومه وتعنفه على جريمته ، بصوت أعلى وأقوى من صوت الرياح والأمواج معاً اشتدت . عظمت . وانقلبت سريرة الرجل . شيئاً آخر .. وقد أخذ الرشاد يشق فيها ابتسام النور في الظلام . ورسخ في ذهنه أن الفتيلة ، قد تكف عن تعذيبها ، إذا أن الابنة تصفو عنه . الا ليته يستطيع أن يظفر من ابنته بكلمة يطيب بها قلبه البائس ... كان يتوقع طول الصباح ، ويتخيل الدار وقد أصبحت قفراء حزينة ! يا لله ! أعمر الآن — ماري ! ولكن كيف تتكلم .. يجب أن تتول له كلمة تعجو بها روحه من العذاب .

غير أن الفتاة ما زالت على اصرارها .. لا يثنيها مر الأيام . وترخص الثلج في صدرها .. وظهر عليها الهزال ... وكانت تسهر عليها .. مثلة لها . ولشد ما كان الرعب يتملك آن — ماري ، عندما كانت تتخيل ، أنها قد تنظر الى مكالة أبيها . لا .. إنها لا ترغب في نزع السلاح . كانت إذا تلاقت عيناها مرة بنظرات أبيها الحزينة ، التي تلازمها دواماً ، فما أسرع أن تغض عنه عينها .

* * *

وأخيراً ، وقد أحست آن — ماري ، أن العمر يذوب قطرة قطرة . فيما طلبت بؤتى لها بقسيس .. وأتى يصحبه طفل ... ودخلا بحذر . ولها صوت وقع هيب . وداد شحوب الفتاة عندما سمعت طنيناً ضعيفاً ، عرفت صوت الزيوت المقدسة !

واعترفت الفتاة ... ولكنها احتفظت بكذبتها الى حين . صرح بالحقيقة ، ولم تتهم قاتل أمها . ولكنها إبنة القاتل ! وكيف تبوح بها ! إنه سر سوف تحتفظ به وديعة مقدسة ، لا تسلمها لغير ربها . إنه سر لا سلطان عليه البتة . ولما دخل الأب بعد ذلك الى حجرة ابنته ، فانها التفت اليه نظرة قرأ بوضوح : أني لم أقل شيئاً عن سرك » .

وظنّ الرجل ان ابنته ، قد هدأ في قلبها الحقد والكراهية . ظنّ أن هذه المائدة ، سوف تفتح له ذراعيها النحيلتين ، وتقطع الصمت . فركع بالقرب من سريرها :

كانت آن — ماري ، قد أنهكها الجهد الذي انفقته في الاعتراف ، فأقفلت أجفانها وضمت ذراعيها . فبدت وكأنها دخلت في راحتها الابدية . فأصابت الرجل قشعريرة سرت

ولكن الفتاة ما زالت تتنسم نسيم الحياة . وكان أبوها يرقب وجهها الناصع البياض وفمها الذي يلفظ انفاساً ضعيفة قصيرة . وتمتم الاب قائلاً :

— آن — ماري ! اغفري لأبيك . كلّميه . أرجوك . أتوسل اليك . قولي انك عفوت عني . ولما كانت تلزم الصمت ، فقد الحّ الرجل قائلاً :

— لِمَ لا تقولين شيئاً ؟ قولي كلمة . كلمة واحدة . ليس هذا بالشيء الكثير . كلمة تؤكد أن . . . انكِ قد نسيتِ جريمتي . انكِ هناك في أعلى ستضرعين من أجلي . آن — ماري ، أجيبي ! . . .

وانتظر لحظة . ولكن الفتاة لا تجيب ، وكأنها تهيم في عالم بعيد . فصاح الاب في جزع متوسلاً :

— آن — ماري ! ردّي على أبيك بنيتي . . . اني على كل حال ، لم أسيء اليك

ونهضت آن — ماري ، على ذراعيها . وقد تبعثر شعرها . وحوّلت نحوه عينين ملؤهما الاشباح . فقد ارتفع الماضي بين ذلك الرجل الحائر الوهان ، وبين تلك الفتاة التي يقتنصها الموت . ذلك الماضي الذي لا يمكن لها أن تتناساه . وفهم الرجل ان ابنته قد أجرت العدل في عنايه . وانه صريع انتقامها !

وبينما كان ينظر الى آن — ماري ، رأى نوراً عظيماً ، قد أضاء على وجهها . ثم وثبت الفتاة شواها الأخيرة ، وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة حزينة ، واغرورقت عيناها بالدموع . ومدّت ذراعيها نحو شبح غير منظور . ونطقت بتلك الكلمة الفريدة . أول كلمة تلعم بها لسان الصغير فيما مضى :

— أماه !

ثم هوت على فراشها ، وقد فارقت الحياة .

نعمت صبحي